

هجمة شرسة على اللغة العربية في تونس

«العامية» ظاهرة انتشرت بتواطؤ مع بعض الناشرين

ظاهرة غريبة تنتشر مؤخرا في تونس هي ظاهرة الكتابة بالدارجة وترجمة أعمال فكرية وأدبية عديدة إلى الدارجة، والأمر يبدو في ظاهره انتصارا للوقمية التونسية، لكن في باطنه جهل بالتاريخ وتزييف للحقائق.



أبو بكر العبادي
كاتب تونسي

وهي أنها كُتبت عن أنيابها من خلال جمعية تأسست حديثا تدعى «دارجة»، ندعو صراحة إلى جعل العامية التونسية لغة قائمة الذات، وتدرسيها منذ الصف الأول الابتدائي. جمعية يقول أصحابها «نتكلم ونحلم تونسي... نحسب نكتب بالتونسي... لوغتنا هي تشكيبك حلو... خلطه تونسيه مزيايه ترشا... ويزعمون أن غايتهم «باش نوربو قيمة لوغتنا ونرجعولها بلاصتها إلى تستحقها... باش نوصلو للونوتو متاعنا».

وبصرف النظر عن المغالطات الكثيرة كالأدعاء بان الدارجة التونسية هي التي حافظت وحدها على هويتنا وتاريخنا عبر العصور، فإن ما يشد الانتباه هو محاولة أصحاب هذا النهج البحث عن شرعية تاريخية، فيذكرون الصحف التي صدرت بالدارجة ما بين الحربين كـ «السردوك» (الديك) و«الفرزوق» (الزبون) و«الزهرة»، ليبينوا أن ثمة من سبقهم من التونسيين في الكتابة بالعامية، ويتناسون الظروف التاريخية التي أوجدتها، فقد كانت بتدبير من السلطات الفرنسية الاستعمارية في حربها ضد شيوخ جامع الزيتونة المتمسكين بالهوية الدينية واللغوية.

ويستحضرون أيضا «جماعة تحت السور»، والحال أن هؤلاء كتبوا الأجزاء والأغاني والمسرحيات والتمثيلات الإذاعية كتعبير فني لا محالة، ولكن كوسيلة للاستزراق أيضا، ولاسيما أنهم في عمومهم كانوا يعيشون حياة بوهيمية باتم معنى الكلمة.

ولئن اكتفى بعضهم بتلك الأجناس فإن بعضهم الآخر جمع بين كتابتها بالعامية، وبين إبداع نصوص بالفصحى مثل على الدواعجي في القصة، ومصطفى خريّف في الشعر، إذ كانوا يدركون أن الأدب لا يمكن أن يصاغ كما تصاغ الأجزاء والتمثيلات لأنها، إلا ما ندر، منطوقة وسموعة، وليست مقروءة.

أما الداعون اليوم إلى تعميم الدارجة وتدرسيها، والتوسل بها في فهم سائر حقول المعرفة، فدافعهم أيديولوجي، يليه أمنية استعمارية قديمة لضرب الهوية العربية، فهم يكتفون عدا مكينا للغة العربية، لأنهم لا يتقنونها أصلا، ويجدون صعوبة حتى في تعميم الوثائق الإدارية البسيطة، بل لا يحسنون حتى التحدث بعامية التونسيين، بسبب غلبة اللسان الفرنسي على تكوينهم؛ ولأنهم

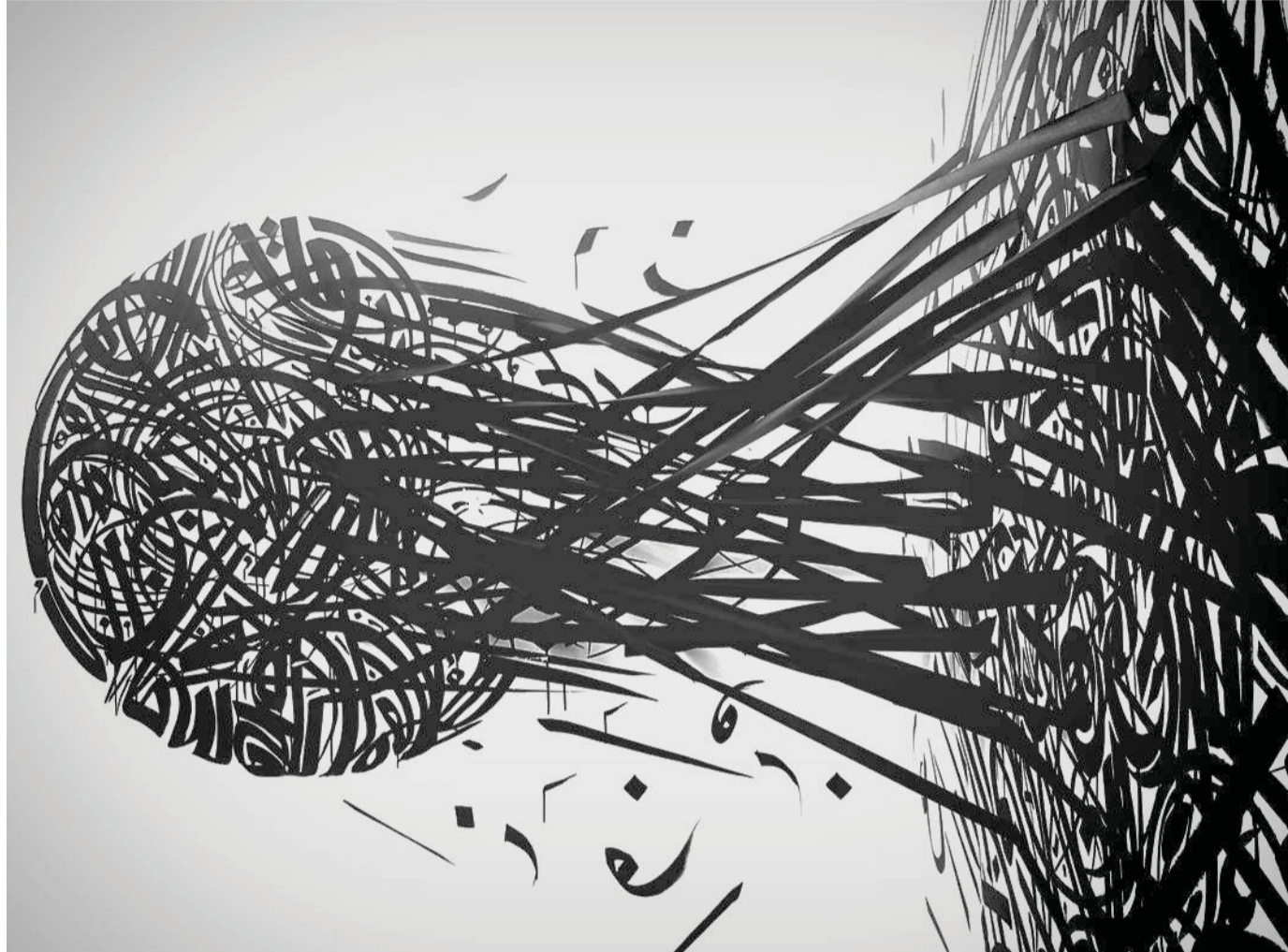
اتضح الآن أن استعمال بعض القنوات التلفزيونية خطابا لغويا هجينا في تونس لم يكن بريئا بالمرّة، وإنما كان تمهيدا لقرص ما يسميه بعضهم بـ «اللوغة (كذا) التونسية». وراجت في الآونة الأخيرة ظاهرة نشر روايات بالعامية، يستقبل أصحابها على البلاطوات استقبال فطاحل الكتاب، وتنظم لهم حفلات التوقيع، وتعدّ حول بدعهم الندوات، وترفع أغلفتها في معلقات عصرية ضخمة على قاعة الطريق، لا تخطئها العين إن لبليل أو نهار.

مغالطات تاريخية

أكثر من ذلك، قام بعضهم بترجمة روايات ودراسات فكرية أجنبية إلى العامية، ولم ينح من هذا العبث حتى دستور البلاد، بدعوى تمكين المواطن التونسي من الوصول إلى تلك العلامات المضيئة في الفكر الإنساني، بمصطلحاتها المعقدة التي حار الأكاديميون أنفسهم في فهمها وشرحتها وإيجاد بديل لها في لغة الضاد. وهي مؤلفات تزعم التوجه إلى كل من هب وذب، متجاهلين أن هؤلاء الذين يهتدون ويديون لا يحسنون القراءة، وإن قرأوا اقتصرنا على صفحات أصداء الرياضة والمحام.

الداعون اليوم إلى تعميم الدارجة وتدرسيها، والتوسل بها في فهم سائر حقول المعرفة، دافعهم أيديولوجي بحت

أي أن تلك الأعمال ليست محاولات فريدة للتعبير عما يشغلها، وإنما هي ظاهرة ما فتئت رقعته تتسع بتواطؤ مع بعض الناشرين الذين يبحثون عن الربح السريع، وحتى الجهات الرسمية التي ساهمت في تسليط الضوء عليها في معرض الكتاب الدولي العام الماضي،



الدارجة لا تنفصل عن العربية (لوحة للفنان ساسان نصرانيا)

ولعل أغرب ما سمعنا ممن تبنا هذا الخط والفنوا بالعامية قولهم إن في ذلك انفتاحا على الآخر وليس تعصبا للمحلية، ولا نندي كيف تنفتح لهجة محلية تختلف في فهم مفرداتها أبناء البلد الواحد على البلدان الأخرى، في وقت تجد فيه حتى الفصحى صعوبة في تخلي الحدود.

بقي أن نقول إن الجوائز التي رصدها الجمعية حملت أسماء من تعتقد أنهم رموز للدارجة التونسية. الأول على الدواعجي، عرف أساسا كرائد للقصة التونسية، رغم ازجالة وتمثيلاته الإذاعية، ولا يمكن أن يكون طرفا في هذا التشويه.

الثاني عبدالعزيز العروي إعلامي ومسرحي قبل أن يصبح حكاه ماهرا يشد الأسماع عبر موجات الإذاعة التونسية، ولكن بخلاف ما رسخ في الأذهان، لم

في كل مجالات الحياة، يوهمون بأنهم لا يعادون العربية، وأن مسعاهم يتلخص في تدوين الدارجة ونقلها من المنطوق إلى المكتوب، وما يتبع ذلك من قواعد وقواميس، رغم أنهم يعترفون بأن العامية التونسية، كسائر اللهجات، متحولة لا ينكف معجمها يتغير، فضلا عن كونها قد تختلف من جهة إلى أخرى، ويختلف معها المعنى حدّ البذاعة.

ولا نعرف شعبا ترك لغة حية يرجع عهدها إلى غابر الأزمنة، ليختار بدلا عنها لهجة لا يقر لها قرار. والأمثلة التي تتساق في هذه النقطة خاطئة، لأن الطليان اجتمعوا على لغة تختلف إن قليلا أو كثيرا عن لغتهم القديمة، فيما ألغى الفرنسيون استعمال كل اللهجات منذ نهاية القرن التاسع عشر، وفرضوا فرنسية جديدة متطورة، تختلف عن فرنسية القرون الوسطى.

أيضا يستصغرون موقعها أمام لغات عالم المعرفة، فلا يتخاطبون في ما بينهم إلا بلغة أجنبية، أو بخليط لا هو بالعربي ولا بالأعجمي، كقول رئيس الجمعية في حديثه عن مصنع به تقنيون ومهندسون «أوزينة فيها التكنشيانات وليرتجنون». والذين يقتنون مطبوعاتهم متفرنسون يتخاطبون في ما بينهم على المواقع الاجتماعية بلغة عامية ركيكة وبأحرف لاتينية يعوضون فيها بعض الأحرف بأرقام، ويعجزون عن كتابة جملة عربية سليمة.

يعادون العربية

المفارقة أن هؤلاء الذين يعتبرون العامية مكونا أساسيا من مكونات الهوية التونسية قبل مجيء الإسلام، ويسعون جدهم لجعلها لغة تحتل موقعا مقدما

وثائقي حول المالوف الجزائري

شهادات حول هذا التراث الذي يعبر عن هوية قسنطينة.

واشارت عمور إلى أن هذا الفيلم الوثائقي حول الموسيقى الحضرية لقسنطينة سيسلط الضوء على الأغاني الخالدة على غرار «يا ظالمة» و«قالو لعرب قالو» و«البوغي».

والمالوف هو موسيقى أندلسية الأصل، وقد انتشرت في بلدان المغرب العربي، وخاصة الجزائر، وتونس، وليبيا، وأصل الكلمة هو «مالوف» بتخفيف الهمزة، ولهذه الموسيقى التقليدية والزخرفة بروائع الشعر والموشحات والألحان المبتكرة، قسمان: واحد «نديوي» والآخر «ديني» متصل بمدائح الطرق الصوفية.

والمعروف عن هذا الموروث الغنائي تميز نصوصه الشعرية وأوزان وإيقاعات ومقامات الحانه الخاصة.



فن عربي عريق

ختام أمسيات المرحلة الثانية من «شاعر المليون»

ثم تلا قراءات المتسابقين تقديم لوحة فنية غنائية من روائع الموشحات الأندلسية.

وكانت فقرة المجازة صعبة كونها مخصصة لموشح «يا شقيق الروح من جسدي» لابن زهر الحفيد، وهو ينتمي إلى شعر الموشحات بالعربية الفصحى، مع وجود وزن قريب في الشعر النبطي.

وإثرا اختتمت الأمسية، بعد تقرير سريع استعراضي لمجريات الحلقة ومشاركات الشعراء، وجاء الإعلان عن قرار لجنة التحكيم بتأهيل الشعراء محمد الحمادي العتيبي بنتيجة 49 من 50، وعبدالعزيز العبدلان الديحاني بنتيجة 47 من 50، بينما جاءت نتائج الشعراء الأربعة الذي سينتظرون تصويت الجمهور من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون طوال أسبوع كامل، على النحو التالي: غازي العون السريدي بنتيجة 46 من 50، وعامر بن فواز العجمي بنتيجة 43 من 50، وصالح محمد العززي بنتيجة 42 من 50، ومحمد راشد العويلي بنتيجة 37 من 50.

كما تم الإعلان عن شعراء الأمسية الثالثة عشرة من «شاعر المليون» في موسمها التاسع، وهي الأمسية الأولى ضمن المرحلة الثالثة الحاسمة من البرنامج، وموعدها الثلاثاء القادم 17 مارس، وهم: أحمد بن جديعان العازمي وعبدالعزيز العبدلان الديحاني من الكويت، وراكان بن وليد الراشد وعبدالمجيد سعود الغيداني ومطرب بن دحيم العتيبي من السعودية، ومبارك بالعود العامري من الإمارات.

ومحمد الحمادي العتيبي من السعودية، وعامر بن فواز العجمي وعبدالعزيز العبدلان الديحاني من الكويت، وغازي العون السريدي من الأردن، ومحمد راشد العويلي من العراق.

وتتميز المتسابق الأول الشاعر صالح محمد العززي بقصيدته التي أشادت لجنة التحكيم بانتمائها للرؤية الشعرية الخاصة بالشاعر وتميزها برسالة مبعرة عن الوعي. أما المتسابق الثاني عامر بن فواز العجمي، فتفرد بصياغته الشعرية العاطفية لمشاعر ابن نجاه والده الفريض ووفائه وبزده له.

وتنوعت مواضيع القصائد بين الفراق والجفاء والصدقة والوفاء، حيث ألغى المتسابق الثالث عبدالعزيز العبدلان الديحاني، قصيدة إنسانية تناول فيها موضوع الصداقة كجزء من حياة الإنسان ومسيرته. واعتبرت لجنة التحكيم أن الشاعر ينتهج أسلوب الطباق والمقابلة.

وقد أبدع المتسابق الرابع غازي العون السريدي، في تحاضه مع معلقة الأعشى التي مطلعها «ودع هريرة إن الركب مرتحل/ وهل تطيق وداعا أنها الرجل». وكان خامس متسابق الأمسية محمد الحمادي العتيبي، مع قصيدته التي تغنى فيها بجمال المكان وبجزيرة غناضة الظليانية.

أما آخر المتسابقين كان الشاعر محمد راشد العويلي، مع قصيدته التي حملت دعوة التعايش الذي تميز به الشعب العراقي بكل أطيافه.

التراث وتعزيز الاهتمام بالأدب والشعر العربي، على موعد مع تقرير استعرض أهم محطات الأمسية الماضية، ثالث حلقات المرحلة الثانية، وهي الأمسية الحادية عشرة ضمن أمسيات الموسم التاسع.

وتلا ذلك التقرير الإعلان عن نتائج تصويت الجمهور من خلال موقع وتطبيق شاعر المليون الذي استمر طوال أسبوع كامل، وأسفر عن تاهل مطرب بن دحيم العتيبي بنتيجة 93 في المئة، بينما جاءت نتائج المتسابقين المتبقين متساوية كالتالي: حمد المويزي الرشدي وحمدة المر ومحمد حسين الشمري بنتيجة 44 في المئة.

وتضمنت الأمسية الثانية عشرة مشاركات الشعراء صالح محمد العززي

أبوبطي - انتظمت أخيرا الأمسية الرابعة الختامية من المرحلة 24، من أمسيات «شاعر المليون» في موسمه التاسع.

واستهل الإعلاميان أسمان النقيب وحسين العامري الأمسية، بتحيةة الترحيب بأعضاء لجنة التحكيم المؤلفة من الأستاذ والباحث والروائي سلطان العميمي، مدير أكاديمية الشعر في أبو ظبي، والدكتور غسان الحسن، والشاعر حمد السعيد، وعضوي اللجنة الاستشارية للبرنامج الأستاذ تركي المريخي والأستاذ بدر صوفوق.

وكان عشاق «شاعر المليون»، برنامج الشعر النبطي الذي تنتجه لجنة إدارة المهرجانات والبرامج الثقافية والتراثية بأبوظبي، في إطار استراتيجيتها الثقافية الهادفة لصون



عبد العزيز الديحاني المتأهل بقرار اللجنة